سلسلة متون معهد السُّنّة - رقم (٤٣)
النسخة الأولى (١٤٤٣)

معهد السنة
As-Sunnah College

الدُّرَّة الفَاخِرة

في التَّعليق على منظُومة
السَّير إلى الله والدَّار الآخِرة

لعبْد الرَّحمن بنِ ناصِر بن عبد الله ابن سِعْدي

توفي سنة ١٣٧٦هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ علىٰ محمدٍ، وآله وصحبه أجمعين.

هذا تعليقٌ لطيفٌ علىٰ «**مَنْظُومَتِي فِي السَّيْرِ إِلَىٰ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ**»، يَحُلُّ معانيَها، ويوضِّحُ مَبانيَها، فإنَّها قد حصّلت علىٰ كبيرٍ من منازل السائرين إلىٰ الله، التي تُوصِلُ صاحبَها إلىٰ جنّات النعيم في جوارالرَّب الكريم، وتمنعُهُ من عذاب الجحيم والحجاب الأليم.

واللهُ المسؤولُ – بفضله ومنّه – أنْ يجعلَه خالصًا لوجهه، مقرِّبًا عندهُ.

الْعِبَادَةُ

واعلم أنّ المقصودَ من العبد: عبادةُ الله، ومعرفتُهُ، ومحبّتُهُ، والإنابةُ إليه علىٰ الدّوام، وسلوكُ الطُّرُق التي تُوصِلُه إلىٰ دار السَّلام.

وأكثرُ الناسِ غلبَ عليهم الحِسُّ، ومَلَكَتْهم الشهواتُ والعاداتُ، فلم يرفعوا بهذا الأمرِ رأسًا، ولا جعلوه لبنائهم أساسًا؛ بل أعرضوا عنه اشتغالًا بشهواتهم، وتركوهُ عُكوفًا علىٰ مُراداتِهم، ولم ينتهوا لاستدراك ما فاتَهم في أوقاتهم؛ فهم في جهلهم وظُلمِهم حائرونَ، وعلىٰ حظوظ أنفسهم الشَّاغلة عن الله مُكِبُّونَ، وعن ذكر ربِّهم غافلونَ، ولمصالح دينهم مُضَيِّعون، وفي سُكْر عِشْق المألوفات هائمونَ، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر].

ولم ينتبَّه من هذه الرَّقدة العظيمة، والمصيبة الجسيمة إلَّا القليلُ من العُقلاء، والنادرُ من النُّبلاء، فعلموا أنّ الخسارةَ كلَّ الخسارة الاشتغالُ بما لا يُجدي علىٰ صاحبه إلَّا الوَبال والحرمان، ولا يُعوّضُه ممّا يُؤمِّلُ إلَّا الخُسران، فآثروا الكاملَ علىٰ النَّاقص، وباعوا الفانِيَ بالباقي، وتحمّلوا تعبَ التكليف والعبادة، حتّىٰ صارتْ لهم لذّةً وعادة، ثمَّ صاروا بعدَ ذلك سادةً.

فاسمعْ صفاتِهم، واستعنْ بالله علىٰ الاتِّصاف بها:

[١] سَعِدَ ٱلَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ ٱلرَّدَىٰ ... وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ ٱلرِّضْوَانِ

هذا هو أَصلُ طريقهم، وقاعدةُ سير فريقهم؛ إنَّهم:

تجنَّبوا طُرُقَ الخُسران، **وتيمَّموا** طُرُقَ الرّضوان.

تجنّبوا طرقَ الشيطان، **وقصدوا** عبادةَ الرحمن.

تجنّبوا طُرقَ الجحيم، **وتيمّموا** سبلَ النعيم.

تركوا السيئات، **وعملوا** علىٰ الحسنات.

نزَّهوا قلوبَهم وألسنتَهم وجوارحَهم عن المحرَّمات والمكروهات، **وشغلوها** بفعل الواجبات والمُستحبَّات.

تحلَّوا بالأخلاق الجميلة، **وتخلَّوا** من الأوصاف الرّذيلة.

[٢] فَهُمُ ٱلَّذِينَ قَدَ ٱخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ ٱلْإِيمَانِ

هاتان القاعدتان؛ وهما: الإخلاصُ والمُتابعةُ: شرطٌ لكلّ عبادةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، فكلُّ عملٍ لا يُرادُ به وجهُ الله فهو باطلٌ، وكلُّ عملٍ لا يكونُ علىٰ سُنَّة رسول الله فهو مردودٌ، فإذا اجتمعَ للعمل الإخلاصُ للمعبود – وهو أنْ يُرادَ بالعمل وجهُ الله وحدَه –، والمتابعةُ للرَّسول – وهو أنْ يكونَ العملُ قد أُمِرَ به – فهذا هو العملُ المقبولُ.

[٣] وَهُمُ ٱلَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَيْنَ ٱلرَّجَا وَٱلْخَوْفِ لِلدَّيَّانِ

أي: ساروا في جميع أُمورِهم مُسْتَصْحِبِينَ ومُلازمين للخوف والرَّجاء، وذلكَ أنَّ لهم نظرًا؛ أي: نظرٌ إلىٰ أنفسهم وتقصيرهم في حقوق الله؛ يُحدِثُ لهم الخوفَ، ونظَرٌ إلىٰ مِنَن الله عليهم، وإحسانه إليهم؛ يُحدِثُ لهم الرجاءَ.

وأيضًا، **ينظرونَ** إلىٰ صفات العظمةِ والجلالِ، والحكمةِ والعدلِ؛ **فيخافونَ** علىٰ أنفسِهم من ترتُّبِ آثارِها.

وينظرونَ إلىٰ صفاتِ الرَّحمة والجود والكَرَم والإحسان؛ **فيرْجونَ** ما تقتضيه:

فإنْ فعلوا حسنةً، جمعوا بينَ الخوف والرجاء؛ فيرجونَ قَبولها ويخافونَ ردَّها، وإن عملوا سيئةً؛ خافوا من عقابها، ورَجَوْا مغفرتَها بِفَضْلِ الله= فهم بينَ الخوف والرجاء يتردَّدونَ، وإليهما دائمًا يفزَعونَ، ومنهما في أمر سيرهم متردِّدونَ، فأُولئك الذينَ أحرزوا قَصَبَ السَّبْق،

وأُولئكَ هم المفلحونَ.

[٤] وَهُـمُ ٱلَّذِيـنَ مَـلَا ٱلْإِلَٰهُ قُلُـوبَهُمْ بِـــوِدَادِهِ ومَحَبَّـــةِ ٱلــــرَّحمَنِ

هذه المنزلةُ – وهي منزلةُ المحبّة – هي أَصلُ المنازل كلّها، ومنها تنشأُ جميعُ الأعمال الصالحة، والأَعمال النافعة، والمنازل العالية.

ومعنىٰ المحبّة: تعلُّقُ القلب بالمحبوب، ولزومُ الحبّ للقلب، فلا تنفكّ عنه.

تقتضي من صاحبها الانكفافَ عما يكرهُ الحبيبُ، والمبادرة إلىٰ ما يُرضيه بقلبٍ منشرحٍ، وصدرٍ رحيبٍ، فإنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بالله، وإنْ سَكَتَ سكتَ لله، وإنْ تحرَّكَ فللّه، وإنْ سَكَنَ فلهُ، ويَحْدُثُ عن الحبّ الشوقُ إلىٰ الله، والقلقُ، فلا يكادُ صاحبُهُ يستقرُّ.

إنْ قِيلَ: **فهل للمحبّةِ- التي هي أعلىٰ المراتب- من وسيلةٍ وسببٍ؟**

قيلَ: لم يجعل اللهُ مطلبًا إلّا جعلَ لحصوله سببًا، فمِن أَكبر أسبابها الانكِفَافُ عن كلِّ قاطعٍ بالقول والفعل والأفكار الرديّة، والإكثارُ من ذكر الله بحضور قلبٍ، وتدبُّر كلامِه الكريم، مُطالِعةً نِعَمَهِ العظيمةِ علىٰ العبد، وبالوقوف بينَ يديه بحضور قلبٍ، وأَدَبٍ في الوقوف بينَ يديه، ومجالسة المُحبّين، ومجانبة كلّ قاطع، فَمَن فَعَلَ ذلكَ نالَ محبّةَ الله إن شاء اللهُ، واللهُ المُستعانُ.

ولهذا قلتُ:

[٥] وَهُمُ ٱلَّذِينَ قَدَ ٱڪْثَرُوا مِنْ ذِكْـرِهِ فِي ٱلسِّـــرِّ وَٱلْإِعْـلَانِ وَٱلْأَحْيَـانِ

منزلةٌ شريفةٌ، حاجةُ كلّ إنسان إليها؛ بل ضرورتُهُ إليها فوقَ كلّ حاجةٍ، فذِكرُ الله هو عمارةُ الأوقات، وبه تزولُ الهمومُ والغمومُ والكُدوراتُ، وبه تحصلُ الأفراحُ والمسرَّاتُ، وهو عِمارةُ القلوب المُقفِرات، كما أنَّهُ غِراسُ الجنّات، وهو مُوصِلٌ لأعلىٰ المقامات، وفيه من الفوائد ما لا يُحصىٰ، ومن الفضائل ما لا يُعدّ ولا ينقضي، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب].

وقالَ النبيُّ ﷺ لرجلٍ قالَ: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَوْصِني؟ قَالَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**».

وقال: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**».

ولي من أبيات:

وَكُــنْ ذَاكِــرًا لِلَّهِ فِي كُلِّ حَالَــةٍ ... فَلَـيْسَ لِذِكْـرِ ٱللَّهِ وَقْـتٌ مُقيَّـدُ
فَــذِكْرُ إِلَهِ ٱلْعَــرْشِ سِرًّا وَمُعْلَنًــا ... يُزِيلُ ٱلشَّقَا وَٱلْهَـمَّ عَنْـكَ وَيَطْـرُدُ
وَيَجْلِـبُ لِلْخَـيْرَاتِ دُنْيًـا وَآجِـلًا ... وَإِنْ يَأْتِكَ ٱلْوَسْـوَاسُ يَوْمًـا يُشَـرِّدُ
فَقَدْ أَخْبَرَ ٱلْمُخْتَـارُ يَوْمًـا لِصَحْبِهِ ... بِأَنَّ كَثِيرَ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلسَّبْقِ مُفْـرِدُ
وَوَصَّى مُعَــاذًا يَسْــتَعِينُ إِلَهَــهُ ... عَلَى ذِكْرِهِ وَٱلشُّكْرِ بِٱلْحُسْنِ يَعْبُـدُ
وَأَوْصَى لِشَخْصٍ قَـدْ أَتَى لِنَصِـيحَةٍ ... وَقَدْ كَانَ فِي حَمْلِ ٱلشَّـرَائِعِ يَجْهَـدُ
بِـأَنْ لَا يَـزَلْ رَطْبًـا لِسَـانُكَ هَـذِهِ ... تُعِــينُ عَلَى كُلِّ ٱلْأُمُــورِ وَتُسْــعِدُ
وَأَخْـبَرَ أَنَّ ٱلذِّكْـرَ غَـرْسٌ لِأَهْلِـهِ ... بِجَنَّاتِ عَـدْنٍ وَٱلْمَسَـاكِنُ تُمْهَـدُ
وَأَخْــبَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَــذْكُرُ عَبْــدَهُ ... وَمَعْــهُ عَلَى كُلِّ ٱلْأُمُــورِ يُسَــدِّدُ
وَأَخْــبَرَ أَنَّ ٱلذِّكْــرَ يَــبْقَى بِجَنَّــةٍ ... وَيَنْقَطِـعُ ٱلتَّكْلِيـفُ حِـينَ يُخَلَّـدُ
وَلَوْ لَمْ يَكُـنْ فِي ذِكْـرِهِ غَـيْرَ أَنَّـهُ ... طَرِيــقٌ إِلَى حُــبِّ ٱلْإِلَهِ وَمُرْشِــدُ
وَيَنْهَى ٱلْفَتَى عَـنْ غِيبَـةٍ وَنَمِيمَـةٍ ... وَعَــنْ كُلِّ قَــوْلٍ لِلدِّيَانَـةِ مُفْسِـدُ
لَـكَانَ لَنَـا حَـظٌّ عَظِـيمٌ وَرَغْبَـةٌ ... بِكَـثْرَةِ ذِكْـرِ ٱللَّهِ نِعْـمَ ٱلْمُوَحَّـدُ
وَلَكِنَّنَـا مِـنْ جَهْلِنَـا قَـلَّ ذِكْرُنَـا ... كَمَـا قَـلَّ مِنَّـا لِـلْإِلَهِ ٱلتَّعَبُّـدُ

وذِكرُ الله نورٌ للذَّاكر في قلبه، وفي قوله، وفي قبره، ويومَ حشره.

والله المُستعانُ.

[٦] يَتَقَرَّبُــونَ إِلَى ٱلْمَلِيــكِ بِفِعْلِهِــمْ ... طَاعَاتِــهِ وَٱلــتَّرْكِ لِلْعِصْــيَانِ

هذه الأعمالُ التي تُقرّبُ إلىٰ الله، وتُوصلُ إليه، وهو فعلُ طاعته، لا سيّما الفرائضَ، وتركِ معاصيه، كما في الحديث القُدُسي: «. . . **وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ**».

فلهذا قلتُ:

[٧] فِعْلُ ٱلْفَرَائِضِ وَٱلنَّوَافِلِ دَأْبُهُمْ مَعْ رُؤْيَةِ ٱلتَّقْصِيرِ وَٱلنُّقْصَانِ

هذا هو الكمالُ: وهو أنْ يجتهدَ في أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، ويرىٰ نفسَه مقصّرًا مُفَرّطًا، فاجتهادُهُ في الأعمال ينفي عنه الكسلَ، ورؤيةُ تقصيره ينفي عنه العُجْبَ الذي يُبطلُ الأعمالَ ويُفسدُها.

[٨] صَبَرُوا ٱلنُّفُوسَ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ كُلِّهَا شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانِ

الصبرُ: هو حبسُ النفس علىٰ ما يكرهُ الإنسانُ إذا كان فيه رِضىٰ الرحمن.

والصبرُ ثلاثةُ أقسام:

- صبرٌ علىٰ طاعة الله حتّىٰ يُؤدِّيَها.
- وصبرٌ عن معاصي الله حتّىٰ يتركَها.
- وصبرٌ علىٰ أقدار الله المؤلمة، فلا يتسفَّهُها.

فإذا كَسِلتْ نفسُهُ عن طاعة الله حثّها عليها، وألْزَمَها، ورَغَّبَها إيّاها بثوابها، وإذا اشتدَّت دواعي نفسه إلىٰ معصية الله كفَّها عنها، وحذَّرها وبَالَها، وعاقبةَ فِعالها.

فالصبرُ محتاجٌ إليه في كلّ الأمور.

[٩] نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ ٱلرِّضَى فَهُمُ بِهَا قَدْ أَصْبَحُوا فِي جَنَّةٍ وَأَمَانِ

منزلةُ الرّضىٰ أعلىٰ من منزلة الصبر، فإنَّ الصبرَ حبسُ النَّفس وكفُّها علىٰ ما تكرهُ، مع وجود منازعةٍ فيها.

وبالرِّضىٰ تضمحلُّ تلك المنازعةُ، ويرضىٰ عن الله رضًىٰ مطمئنٍّ منشرح الصدر، بل رُبّما

تلذَّذَ بالبلاء كتلذُّذ غيره بالرخاء.

وإذا نزلَ العبدُ بهذه المنزلة طابتْ حياتُهُ، وقرَّتْ عينُهُ.

ولهذا سُمِّي الرّضا (جَنَّةَ الدنيا ومُستراح العابدينَ)، ومنْ رَضيَ عن الله رضيَ اللهُ عنه، ومَنْ رضيَ من الله باليسير من الرّزق، رضيَ اللهُ منه باليسر من العمل.

فحقيقةُ الرّضىٰ تَلَقِّي أَحكامِ الله الأمريَّة الدينيّة، وأَحكامِه الكونيّة القدَريّة بانشراح صدرٍ، وسرور نفسٍ، لا علىٰ وجه التكرُّه والتلمُّظ.

[١٠] شَكَرُوا ٱلَّذِى أَوْلَى ٱلْخَلَايِقَ فَضْلَهُ   بِٱلْقَلْـــبِ وَٱلْأَقْـــوَالِ وَٱلْأَرْكَانِ

الشُّكرُ:

- **يكونُ بالقلب**؛ وهو: الاعترافُ بنعم الله، والاقرارُ بها، وعدمُ رؤية نفسه لها أهلًا؛ بل هي محضُ فضل ربِّه.

- **ويكونُ باللسان**؛ وهو الثناءُ علىٰ الله بها، والتحدُّثُ بها.

- **ويكونُ بالجوارح**؛ وهو كفُّها عن معاصي الله، والاستعانةُ بنعمه علىٰ طاعته، فإن أَعطاهُ شيئًا من الدُّنيا شَكَرَهُ عليه، وإنْ زوَىٰ عنه شيئًا منها شكرهُ أيضًا، إذْ ربَّما كانت نِعمتُهُ عليه صارفةً منه شرًّا أَعظمَ منها، وإنْ وفَّقَه لطاعةٍ من الطَّاعات رأىٰ المِنَّةَ لله في توفيقه لها وشَكَرَهُ عليها.

واللهُ المُستعانُ.

[١١] صَحِبُوا ٱلتَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ   مَعْ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَى ٱلرَّحْمَنِ

يكمُلُ العبدُ في هذين الأمْرَيْن، وهما: التوكُّل علىٰ الله، والاجتهادُ في طاعة الله، ويتخلَّفُ عن العبد الكمالُ بَفَقْدِ واحدٍ منهما.

فحقيقةُ التوكُّل تجمعُ أَمرين:

- **الاعتمادَ علىٰ الله**، والثقةَ بالله، فيعتمدُ علىٰ ربّه بقلبه في جلب ما ينفعُهُ في أَمر دينه ودنياه؛

فَيَتَبَرَّأُ من نفسه وحَولِها وقُوَّتِها، ويثقُ بالله في حصول ما ينفعُهُ، ودفْع ما يضرُّهُ.

- **ويجتهدُ في الأسباب** التي يُتوصَّلُ بها إلىٰ المطلوب.

وتفصيلُ ذلك: أنَّهُ إذا عزمَ علىٰ فعل عبادةٍ بَذَلَ جهدَهُ في تكميلها وتحسينها، ولا يُبْقي من مجهوده مقدورًا، وتبرَّأ من النَّظر إلىٰ نفسه وقوَّتها؛ بل لجأ إلىٰ ربّه، واعتمدَ عليه في تكميلها، وأَحسنَ الظنَّ، ووثقَ في حصول ما توكَّلَ به عليه.

وإذا عزمَ علىٰ ترك معصيةٍ قد دعتْهُ نفسُهُ إليها: بَذَلَ جهده في الأسباب الموجبة لتركها، من التفكُّر بها، وصَرْف الجوارح عنها، ثمَّ اعتمدَ علىٰ الله، ولجأَ إليه في عصمته منها، وأَحسنَ الظنَّ به في عصمته له، فإنَّه إذا فعلَ ذلكَ في جميع ما يأتي ويَذَرُ، رُجِيَ له الفلاحُ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ.

وأمّا مَن استعانَ بالله وتوكَّلَ عليه، مع تركه الاجتهادَ اللازمَ له، فهذا ليسَ بتوكُّلٍ؛ بل عجزٌ ومهانةٌ.

وكذلكَ مَن يَبذلُ اجتهادَهُ، ويعتمدُ علىٰ نفسه، ولا يتوكَّلُ علىٰ ربِّه، فهو مخذولٌ.

[١٢] عَبَدُوا ٱلْإِلَٰهَ عَلَى ٱعْتِقَادِ حُضُورِهِ فَتَبَوَّؤُوا فِي مَنْزِلِ ٱلْإِحْسَانِ

هذه المنزلةُ يقالُ لها: منزلةُ الإحسان، وهي كما فسَّرَها النبيُّ ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

فإذَا تصوَّر الإنسانُ هذا المقامَ في جميع أَحواله لا سيّما حال العبادة: مَنَعَهُ من الالتفات بقلبه إلىٰ غير ربّه؛ بل أَقبلَ بكُلِّيَّتِهِ علىٰ الله، وتوجَّهَ بقلبه إليه، مُتأدِّبًا في عبادته، آتِيًا بجميع ما يكمِّلُها، مجتنبًا كلَّ مُنْقِصٍ لها.

وهذه المنزلةُ من أعظم المنازل وأَجلّها؛ ولكنّها تحتاجُ إلىٰ تدريجٍ للنفوس شيئًا فشيئًا، ولا يزالُ العبدُ يُعوّدها نفسَه حتّىٰ تنجذبَ إليها وتعتادَها، فيعيشَ العبدُ قريرَ العين بربّه، فرِحًا مسرورًا بقُربه.

[١٣] نَصَحُوا ٱلْخَلِيقَةَ فِي رِضَى مَحْبُوبِهِمْ ... بِٱلْعِلْمِ وَٱلْإِرْشَادِ وَٱلْإِحْسَانِ

[١٤] صَحِبُوا ٱلْخَلَائِقَ بِٱلْجُسُومِ وَإِنَّمَا ... أَرْوَاحُهُمْ فِي مَنْزِلٍ فَوْقَانِي

هذه حالُهم مع الخَلق، أكملُ حالٍ وأَجلُّها، فأبدَوا لهم غايةَ النُّصح، وأَحبّوا لهم ما أحبُّوا لأَنفسهم من الخير، وكرهوا لهم ما كرهوا لأنفسهم من الشرّ، فَسَعَوْا في إزالة الشرّ عنهم بكلّ ممكنٍ، واجتهدوا في إيصال النفع إليهم بكلّ مقدورٍ، مِن أَمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وإغاثة ملهوفهم، وتعليم جاهلهم، ورَدع ظالمهم، ونصر مظلومهم، واحتمال أذاهم، وكفّهم أذىٰ أَنفسهم عنهم، ومع هذا فصُحبتُهُم لهم بالظاهر والجسم.

وأمّا قلوبُهم وأرواحهم: فإنّها تجُولُ حولَ الحبيب، وتطلبُ مِن قُربه أعظمَ نصيب، فتارةً تنكسرُ بينَ يديه، وتخشعُ وتخضعُ لديه، وطَورًا تشكرهُ لحبّه، وتُدِلُّ عليه لاستحضار بِرّهِ وَقُربِهِ، ثمَّ تميلُ إلىٰ مراضيهِ؛ فتجتهدُ في عباداته، وتُحسنُ إلىٰ مخلوقاته، فهؤلاء هم النّاسُ؛ بل هم العُقلاءُ الأكياسُ.

ولا حولَ ولا قوّةَ إلَّا بالله.

[١٥] رَعَوُا ٱلْحَقَائِقَ وَٱلْمَشَاهِدَ كُلَّهَا(١) ... خَوْفًا عَلَى ٱلْإِيمَانِ مِنْ نُقْصَانِ

هذه منزلةُ الرِّعاية لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان، وذلك أنَّ العبدَ لا ينبغي له أنْ يُعرِضَ عن تدبُّر أَحواله، والتفكّر في نقص أَعماله؛ بل يبذلُ جُهدَهُ قبلَ العمل، وفي نفس العمل، وتصحيحه وتحسينه، ثمَّ يصونُهُ من المفسدات، ويُنزّهُهُ عن المُنْقِصَاتِ، فإنَّ حفظَ العمل أعظمُ من العمل، فكلما ازدادَ العبدُ رعايةً لعمله واجتهادًا فيه ازدادَ إيمانُهُ، وكلَّما نقصَ من ذلكَ نَقَصَ من إيمانه بحسبه.

ومن أعظم ما ينبغي مراعاتُهُ في العمل مشهدُ الإحسان، وهو: الحرصُ علىٰ إيقاع العبادة

(١) في نسخة: بِٱللَّهِ دَعْوَاتُ ٱلْخَلَائِقِ كُلِّهَا.

بحضور قلبٍ وجمعيّته علىٰ الله، كذلك مراعاةُ مِنّة الله علىٰ العبد، وأنّه ينبغي له أنْ يشكرَ الله علىٰ توفيقه لذلكَ العملِ أعظمَ شكرٍ.

وكذلكَ مراعاةُ التَّقصِير، وأنَّك لم تؤْتِ العبادةَ حقَّها، ولا قُمْت بجميع ما تستحقُّها.

وكذلكَ مراعاةُ الخوف والرَّجاء، يخافُ من ردّها بعُجبٍ أو رياءٍ أَو تكبُّرٍ بها، أَوْ عدم قيامٍ بحقّها، أو غير ذلك، ويرجو قَبولَها برحمة ربّه ومَنّه وإحسانه إليه، الّذي من جملته توفيقُهُ لها.

[١٦] عَزَفُوا ٱلْقُلُوبَ عَنِ ٱلشَّوَاغِلِ كُلِّهَا   قَدْ فَرَّغُوهَا مِنْ سِوَى ٱلرَّحْمَنِ

[١٧] حَرَكَاتُهُمْ وَهُمُومُهُمْ وَعُزُومُهُمْ   لِلَّهِ لَا لِلْخَلْقِ وَٱلشَّيْطَانِ

أي: فرَّغوا قلوبَهم عن جميع ما يُشْغِلُ عن الله، ويُبعِدُ عن رضاهُ، **وهذا حقيقةُ الزُّهد.**

ولا يكفي هذا التفريغُ حتّىٰ يمتلئَ القلبُ من الأفكار النافعة والعُزوم الصادقة، فتكونَ أفكارُ العبد في كلّ ما يقرّبُ إلىٰ الرحمن – من تصوُّر علمٍ، وتدبُّر قرآنٍ، وذكرٍ لله – بحضور قلبٍ، وتفكُّرٍ في عبادةٍ وإحسانٍ، وخوفٍ من زلّةٍ وعصيانٍ، أو تأمُّلٍ لصفات الرحمن، وتنزيههِ عن جميع العيوب والنُّقصان، أو تفكُّرٍ في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها.

فأفكارُهم حائمةٌ حولَ هذه الأُمور، متنزِّهةٌ عن دنيّات الأمور، والتفكّر بما لا يُجدي علىٰ صاحبه إلَّا الهمَّ والوَبالَ، وتضييعَ الوقت، وتشتيتَ البال، غيرَ نافعٍ للعبد في الحال والمآل.

[١٨] نِعْمَ ٱلرَّفِيقُ لِطَالِبِ ٱلسُّبُلِ ٱلَّتِي   تُفْضِي إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ وَٱلْإِحْسَانِ

فهؤلاء هم الَّذينَ يَسْعَدُ بهم رفيقُهم إذا اقتدىٰ بسلوك سَيْرِهم فريقُهم.

وهؤلاء الّذينَ أَمَرَنا اللهُ أنْ نسألَه أنْ يهديَنا طريقَهم إذْ أنعمَ عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقهم.

فنسأل اللهَ أنْ يهديَنا الصِّراطَ المستقيمَ، صراطَ الذينَ أَنعمَ عليهم: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء]، وأنْ يُجَنِّبَنا طُرُقَ الغضب والضلال المُوصِلَةَ إلىٰ الخِزي والوَبال، إنَّه أكرَمُ الأكرمينَ، وأَرحَم الرَّحمينَ.

واللهَ أَسألُ، وبأسمائه الحسنىٰ وصفاته ونعمه أَتوسَّل: أنْ لا يحرمَنا خيرَ ما عندَهُ من الإحسان والغُفران، بِشَرِّ ما عندنا من التقصير بحقوقه والعصيان، وأنْ يجعلَه خالصًا لوجهه الكريم، وسببًا للفوز عندَه في جنّات النعيم.

والحمدُ لله ربّ العالمين، أوَّلًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، حمدًا كثيرًا مُبارَكًا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعِزّ جلاله.

وصلَّىٰ اللهُ علىٰ محمدٍ النبيِّ الأُميّ المبعوث

رحمةً للعالمينَ، وعلىٰ آله وصحبه

أَجمعينَ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

للمراسلة حول تصحيح الأخطاء المطبعية

Sunnah.College1@gmail.com